مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 11 عدد: 2 السنة: 2022
ص: 292 - 312 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

أثر الأنساق الثقافية الثابتة في تشكيل الشخصية الروائية عند محمد مفلاح.

The Effect of Stable Cultural Aatterns on the Building of the Novelist Character of Muhammad Muflah.

د. كريمة رقاب[1] / د. عبد السلام بقاق[2] *

REGGAB KARIMA[1] BEGAG ABDESLEM[2]

مخبر التّراث الثّقافي واللغوي والأدبي للجنوب الجزائري[1]/ مخبر نظرية اللغة الوظيفية[2].

جامعة غرداية – الجزائر[1]/جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف – الجزائر[2]

University of Ghardaia [1] / Hassiba Benbouali University of Chlef [2]

begag84@gmail.com [1] / a.begag84@univ-chlef.dz[2]

تاريخ الإرسال: 2022/02/25	تاريخ القبول: 2022/04/27	تاريخ النشر: 2022/06/02

ملخص البحث

تسعى هذه الدراسة من خلال مقاربتها الثقافية والبنائية إلى الكشف عن أهم الأنساق الثقافية الثابتة باعتبارها من أبرز آليات النقد الثقافي في بعض أعمال محمد مفلاح الروائية (الوساوس الغريبة، الكافية والوشام، الاظهار خيرة والجبال، عائلة من فخار، ...) وأثرها في تشكيل الشخصية الروائية من جانبها المادي (المظهر، المستوى الدراسي، العمر، ...)، ومن جانبها المعنوي (الأفعال، والوصف الداخلي، ...)، وعليه ستحاول الإجابة على جملة من الإشكالات لعل أهمها:

ماذا نعني بالأنساق الثقافية؟ وما علاقتها بالنقد الثقافي؟ كيف أثرت هذه الأنساق في تشكل الشخصية عند محمد مفلاح من خلال مجموعة من الأعمال الروائية المكتوبة في فترات زمنية مختلفة على اعتبار أن فن الرواية من أكثر الأجناس استيعابا للمرجعيات الثقافية والاجتماعية والتاريخية و... لتعدد فضاءاتها وأزمنتها وشخوصها وقدرتها على احتواء الجانب الشعبي الذي يصنع الثقافة في المجتمع كما أن اختلاف ازمنة الأعمال الروائية يكشف لنا الأنظمة الثقافية في المجتمع بين والاستمرارية والأفول وقد جمعت هذه الدراسة بين المضمون (النسق الثقافي) والشكل (بنية الشخصية) حتى نلامس إجراءات النقد الثقافي وليس نقد الثقافة.

الكلمات المفتاح : أنساق، ثقافية، مفلاح، شخصية، نقد ثقافي.

* كريمة رقاب: begag84@gmail.com

Abstract :

This study, over its cultural and structural approach, quests to bring to light the most foremost stable cultural patterns as one of the most noticeable mechanisms of cultural criticism in some of Muhammad Muflih's novelistic works (peculiar obsessions, sufficient and tattoos, the collapse, Kheira and the mountains, a family of pottery,...) and their impact on the personality building. The novelist from her physical side (appearance, academic level, age, ...), and from her moral side (actions, internal description, ...), and accordingly she will try to answer a number of problems, perhaps the most important of which are:

What do we mean by cultural patterns? And what are its kinds? What is its relationship to cultural criticism? How did these formats influence the personality building of Muhammad Muflah through a group of fictional works written in different periods of time, given that the art of the novel is one of the most accommodating genres of cultural, social and historical references and... due to the countless varieties of its spaces, times, characters and its capability to contain the popular aspect that makes culture in society, just as the divers times of fictional works disclose the cultural systems in society between continuum and decline, this study incorporate content (cultural pattern) and form (character structure) in order to touch off the procedures of cultural criticism and not criticism of culture.

Keywords: patterns, cultural, stable, Muflah, personality, cultural critic.

تمهيد:

اعتنقت النظريات النصية في فترة ما بعد الحداثة مبدأ التعامل والتفاعل مع المرجع، بعد أن كانت تتعامل مع النص دون غيره من منطلق المركزية والبنية المغلقة (الداخل) من خلال جهود البنيويين الذين أعلنوا عن موت المؤلف[1] بعد أن تم تجريده من سلطة المركز، واعتباره مجرد ذات فاعلة وظيفتها خلق نصوص ذات بعد واقعي داخلي لا خارجي عن طريق المكون الأساس لها وهو اللغة، وبهذا تصبح مقاربة النص بذاته ولذاته، وكذا من خلال جهود التفكيكين الذين أضافوا إلى موت المؤلف موت النص عن طريق قطع أصله–وهو ما يؤدي إلى غياب النص الثابت واختفاء المركز الذي يحتاجه القارئ للفهم أكثر–

بعد القراءة التأويلية للمتلقي والتي تنتج نصوصا ذات مدلول جديد، وعليه لا توجد قراءة نهائية يطمئن إليها المتلقي، بل توجد نصوص بعدد قراء النص الواحد، ومن ثَمَّ تصبح كل قراءة نصا جديده مبدعًا[2].

وهي جهود أحدثت جدلا كبيرا في النقد الغربي –رغم اعتناق العديد لها لاستجابتها لميولاتهم الإيديولوجية والعقائدية والحضارية و... لأن النص ذو طبيعة تفاعلية – تجعله في علاقة حيوية وطيدة بين الداخل والخارج، فأصبحت تبحث عن بديل يكشف حقيقته، وسعت إلى كسر مركزيته ولم يعد الغاية القصوى لها، فاحتضنت هذا السعي الدراسات الثقافية التي خرجت من النص إلى الخطاب ومن المقدس والنموذج والكتابي إلى المهمش والمدنس والمرئي و...، وبهذا لم يعد ينظر إلى النص بوصفه نصا ولا إلى أسباب إنتاجه الاجتماعية والفنية[3] بل أصبح ينظر إليه على أنه دال ثقافي أساسه الأنظمة الثقافية المتجذرة في وعي ولا وعي الأفراد نتيجة البيئة والدين والتاريخ والأعراف والعادات و...، والتي تتخذ من النص أداة ووسيلة لاستنطاقها والكشف عنها، وهي ما يعرف بالأنساق الثقافية. فماذا نعني بالأنساق الثقافية؟ وما هي الأنواع التي اعتمدتها أعمال محمد مفلاح الروائية؟ وكيف أثرت في تشكيل الشخصية الروائية عنده من جانبها المادي والمعنوي.

أولا: مفهوم النسق:

1– النسق لغة: جاء في لسان العرب: "مَا كَانَ عَلَى طَرِيقَةِ نِظام وَاحِدٍ، عامٌّ فِي الأَشياء، وَقَدْ نَسَّقْتُه تَنْسِيقاً؛ ... والتَّنْسِيقُ: التَّنْظِيمُ. والنَّسَق: مَا جَاءَ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى نِظام وَاحِدٍ"[4].

2– النسق اصطلاحا: هو مجموعة من العلاقات تستمر وتتحول في استقلال عن الأشياء التي تربط فيما بينها، أو هو فكر قاهر وقسري مغفل الهوية. وهو أيضا بنية نظرية كبرى تهيمن في كل عصر على الكيفية التي يحيا عليها البشر ومن خلالها يفكرون"[5].

مفهوم النسق الثقافي: يرى عبد الله الغذامي أن النسق الثقافي من المفاهيم المركزية للنقد الثقافي، وقد حدده في سبعة محددات هي: الوظيفة، القراءة الخاصة (باعتباره حالة ثقافية)، الدلالة (مضمرة)، الطبيعة السردية، التاريخانية الراسخة، المحرك الفاعل، التعارض النسقي[6]. وبهذا يكون الغذامي قد قدم مفهوم النسق عن طريق المحددات بعيدا عن التعريفات الجامعة، ولكن يمكن اختزال هذه المحددات في مفهوم مختصر هو أن النسق الثقافي ذو طبيعة اختراقية، فهو يخترق النص من خلال قوته ويختبئ تحت غطاء الجمالية بدون استئذان، ويبسط قوته على عناصر الخطاب فيتسلل عبر البنى الذهنية إلى الشخصيات –وهي أبرز مكونات الخطاب– ويفرض سطوته عليها الأمر الذي يجعلها شكلا ماديا

ومعنويا من خلاله، فنسق المحافظة مثلا يفرض على الشخصية نمطا من اللباس والسلوك وغيرهما، وهو ما سنفصل فيه لاحقا، ويقدم لنا أحمد موسى ناصر المسعودي تعريفا للنسق الثقافي يمكن الاطمئنان إليه، يقول: "البنية الذهنية التي تؤثر في بناء النصوص وتلقيها، تلك البنية تتكون من تفاعل مجموع عناصر الثقافة المعنوية والمادية التي تكتسب قوتها وضعفها من مراكز السلطة بعمومها، ويمكن تلمسها في تشكيل الخطابات الإبداعية إما عبر مستويات ظاهرة أو مضمرة"[7].

ثانيا: مفهوم الأنساق الثقافية الثابتة:

للأنساق الثقافية عدة أنواع تعتمد على البنية التقاطبية، مثل: الأنساق المضمرة والصريحة، والأنساق الثابتة والمتحولة، وسنعتمد في هذه الدراسة على الأنساق الثقافية الثابتة فماذا نعني بها؟

1- مفهوم الأنساق الثقافية الثابتة:

يتميز كل مجتمع بثقافة تخصه وتميز بيئته ومعارفه ومعتقداته وسلوكه و...، تناسلتها الأجيال عبر الزمن إما بطريقة رتيبة ثابتة (متعلقة بالمعتقدات والأعراف)، أو نشيطة متحركة (متعلقة بتطور الحياة والفكر الإنساني) عن طريق إضافة كل جيل شيئا جديدا يتماشى مع مشاعره وطموحاته وتطور الحياة وكل حاجياته، فينتج عنه زيادة في الكم والكيف مما يؤدي إلى التراكم الثقافي على مر العصور يصنعه الأفراد أنفسهم[8].

والأنساق الثابتة هي الأنساق المترسخة والمتجذرة في أذهان أفراد المجتمع، لا تستطيع أقوى العوامل اجتثاثها رغم تعاقب الأجيال، لأنها مرتبطة بالجانب العقائدي والأخلاقي للأفراد والأعراف، وهي ليست من صنع خيال المؤلف، إنما موروث جماعي راسخ، ومن الأنساق الثقافية الثابتة في أعمال محمد مفلاح الروائية التي ساهمت في تشكيل الشخصية الروائية

1-1- نسق المحافظة:

أ- المحافظة لغة: جاء في لسان العرب: "المحافظة تعني المواظبة على الأمر وفي التنزيل العزيز: (**حافظوا على الصلوات**) أي صلوها في أوقاتها ... ويقال حافظ على الأمر والعمل وثابر عليه وحارص وبارك إذا داوم عليه وحفظت الشيء أي حرسته ... والمحافظة المراقبة، ويقال إنه لذو حفاظ وذو محافظة إذا كانت له أنفة"[9]، معنى هذا أن كلمة المحافظة في اللغة ترتبط بالثبات والاستمرارية والأنفة والحراسة والدفاع والنخوة والستر والوفاء، وهي دلالات ترتبط كلها بالمعنى الاصطلاحي للمحافظة إما من قريب أو من بعيد.

ب- **المحافظة اصطلاحا**: يتطابق مفهوم المحافظة اصطلاحا لدى الغرب بمفهومها لدى العرب من ناحية الثبات والاستمرارية للماضي، إلا أنها تأخذ شكلا اجتماعيا ودينيا عند العرب[10] أكثر من الشكل السياسي لدى الغرب[11].

يقول جبور عبد النور: " محافظة: هي النزوع إلى إبقاء ما هو قائم ومقاومة التجديد ...، لا سبيل إلى التبديل فيه أو تطويره إلى الأحسن"[12]. وهنا نشير إلى أن مصطلح المحافظة مصطلح هلامي يصعب ضبطه لأنه يدخل في مجالات متعددة ومتنوعة، ويظهر نسق المحافظة في أعمال محمد مفلاح الروائية في ما يأتي:

1-1-1- العادات والتقاليد: تصنع المجتمعات المحافظة "العرف كقاعدة للسلوك وكمعيار للنظر إلى الأمور"[13]، ساعية إلى تثبيته كلما تعددت السنون للحفاظ على هويتها، وهنا يستوقفنا تمسك المجتمعات العربية بأعرافها في الماضي خشية التماهي مع عادات وحضارة المستعمر[14]، ومجتمع محمد مفلاح الروائي انعكاس للمجتمع الجزائري ثقافيا -في معظمه- فهو يتمسك بالعادات السلبية والإيجابية، وتتجلى هذه العادات والأعراف في:

1-1-1-1- اللباس المحتشم: يرفض مجتمع محمد مفلاح اللباس غير المحتشم، وكذا تبرج المرأة، إذ يرى في تبرجها خدشا في أخلاقها، والشخصية النسوية في ذلك المجتمع تعي هذا الأمر جيدا، لذلك تحاول معظم الشخصيات النسوية أن تلتزم بهذا العرف الذي ساهم في تشكيل هذه الأخيرة في جانبين:

أ- **الجانب المادي**: معظم الشخصيات النسائية في مجتمع محمد مفلاح الروائي -خاصة المتزوجات الماكثات في البيت- تأثرت بذلك النسق من جانب المظهر، وذلك بارتدائها الحايك لكل الفئات العمرية (شابات وعجائز)، فهي تدرك الرفض والنبذ اللذان سيسلطان عليها وعلى أسرها، يقول السارد:

1- "فلما رأته العالية زوجته الشابة وهو في عريه الفاضح يصرخ ... فهِمَتْ أن الحياة معه أصبحت مستحيلة، فتلفعت بحايك المرمة الجميل وهربت ..."[15].

2- "... قصدت الخزانة وفتحت أبوابها ... ثم تلفعت بالحايك الأصفر وخرجت من البيت ..."[16].

3- "تتوجه نحو الخزانة أخرجت منها الحايك الأصفر وبحركات مضطربة تلفعت به وخرجت من الشقة والألم يعصر قلبها"[17].

4- "ارتدت نعيمة فستانها الجميل وتلفعت بالحايك وخرجت من البيت"[18].

أما في رواية عائلة من فخار فنجد البطلة خروفة قد التزمت اللباس المحتشم رغم تبرجها (أطقم، سراويل، ...) بعدما كانت ترتدي اللباس القصير في مدينة وهران[19]، وكذلك المعلمة وردة في رواية الانهيار التي اختارت الملابس المحتشمة في ذهابها إلى العمل بعيدا عن السراويل[20].

ب- **الجانب المعنوي**: والقارئ لأعمال محمد مفلاح الروائية يجد أن نسق المحافظة قد ساهم بشكل كبير في تشكيل الشخصية -خاصه النسوية منها- حيث إن إرغام المجتمع للنساء على ارتداء زي معين من اللباس أحدث في نفوسهن الشعور بالقهر والعبودية، وحسد النسوة اللاتي لم يرضخن لذلك الإرغام لكن بطريقة خفية تكشفها الملاسنات التي ترشق بها المتبرجات، واتهامهن بالفساد والانحلال من باب الغيرة والعجز عن تحدي المجتمع مثلهن، لـذلك كـن يغيرن مظهرهن وسـلوكـهن -خاصة- بمجرد الخروج من بيئتهن، مثلما فعلت فاطمة الحمراء (بيت الحمراء)[21] وخروفة ولد الفخار (عائلة من فخار) عندما ذهبت إلى مدينة وهران[22]، أو طلاقهن مثلما فعلت نعيمة زلاميت (بيت الحمراء)، يقول السارد: "بعد الطلاق صارت نعيمة حرة، قصت شعرها وصبغته بالأصفر واستغنت عن الفساتين المحتشمة وارتدت الجيب والسروال الجينز ... أهدت الحايك الأصفر لجارتها خديجة، استنكر الحي سلوكها الطائش ... حاول الشبان استفزازها، كما عبّر الكبار عن سخطهم عليها ... فهي في حي محترم ولا يحب المتهورات"[23]، وهو السلوك نفسه للبطلة ربيعة (الانهيار)[24]، ونصيرة التل (الوساوس الغريبة)[25]، ويكشف لنا المقطع السردي السابق تشبث أفراد المجتمع بنسق المحافظة لأنهم رفضوا سلوك التحرر لنعيمة واعتباره نوعا من التهور.

1-1-1-2- تقييد حريه المرأة وإذلالها: يمارس مجتمع محمد مفلاح الروائي تضييقا على الشخصيات النسوية فلا يسمح لها بالدراسة ولا بالعمل، ويكون ذلك إما بطريقه مباشرة عن طريق القمع أو بطريقة غير مباشرة عن طريق نبذ المرأة التي تتمرد على أعرف المجتمع وعدم الزواج منها، فالمرأة إذًا في أعمال محمد مفلاح -عادة- مسلوبة الإرادة والاختيار، وهو ما يولد لدى بعضهن نسق الرفض والتمرد، وقد أثر هذا القمع في تقييد حرية المرأة وإذلالها في أعمال محمد مفلاح على الشخصية النسوية في:

الجانب المعنوي: حيث تعيش معظم الشخصيات النسائية الإحساس بالقهر، والحزن لعدم مواصلتها الدراسة مثل: يمينة النساج (عائلة من فخار) التي كانت تعيش الحسرة بسبب أميتها وحرمانها من العمل –رغم انتمائها إلى جيل يرفض عمل ودراسة المرأة–، الأمر الذي جعلها تترجم ذلك الرفض إلى حث ابنتها على مواصلة الدراسة[26]، والتي كانت تفتخر بها بين الناس[27]، وخيرة (خيرة والجبال) التي أرغمت على الزواج على الرغم من رفضها للفكرة، وهو ما جعلها في صراع وانفعال دائم مع أبويها وزوجها وكذا مجتمع قريتها[28]، أما مريم السموري (الكافية والوشام)فقد سلبت حرية اختيار نمط عيشها، فزُوِّجت باحميدة الرفاف قهرا وطلقت منه قهرا، الأمر الذي جعلها تعيش الحيرة والخوف من المستقبل خاصة وأنها يتيمة الأبوين، كما عانت الإذلال من طرف زوجها الذي كان يعنفها جسديا ولفظيا[29]، أما ربيعة (الانهيار) فقد قضت شهورا في ضيق ونكد وتفكير دائم تحاول إرضاء زوج مغرور مضطرب نفسيا، فعانت ضغوطا نفسية كبيرة جعلتها عنيفة مع أقرب صديقاتها وعائلتها[30]، ومن أبشع صور إذلال الشخصية النسائية عند محمد مفلاح شخصية عودة زوجة موسى البقال (بيت الحمراء) التي تحملت خيانته ومعاملته السيئة لها حتى يتزوج فاطمة الحمراء، تقول عودة: "لماذا يا موسى خدعتني، بعد ثلاثين سنة من الزواج ترميني كالخرقة تحملت فيها كل الصعاب ...، وها أنت تفكر في الزواج بالحمراء"[31]، ولولا أن ابنها عبد الله قد حفظ ما تبقى لها من كرامة وأخذها إلى منزله لبقيت تعيش جحيم ومرارة الضرة التي ستشاركها زوجها الذي أعرض عنها، وأصبحت مجرد شيء في البيت، وكذا شخصية فوزية العسلي (الوساوس الغريبة) التي عانت الإحساس بالذل بسبب مزاج خطيبها المتقلب وتردده الواضح في الارتباط معها، بعد أن ضيعت معه سنوات طويلة من عمرها، فعاشت حالات نفسية جمعت بين كرامة الأنثى المجروحة والخوف من كلام الناس وعائلتها، ومن خوف تبخر حلم الزواج من عمار الحر، ومن شبح العنوسة[32].

ومن مظاهر تقييد حرية الشخصيات النسائية في مجتمع محمد مفلاح الروائي سلبها حرية اختيار طريقة عيشها، وهنا أخص بالذكر رفض فكرة طلب الطلاق من طرف المرأة (الخلع)، فالمجتمع يجبرها على البقاء في عصمة رجل لا ترغب في العيش معه، وهو ما يؤثر على سلوكاتها فتصبح عنيفة ومريضة، وتعيش حياتها ناقمة على ذلك الاختيار المفروض، وحتى وإن تمردت وانفصلت عن زوجها وأخذت مسكنا مستقلا لها نُبذت ونُعتت بصفات نابية تدفع ثمنها مدى الحياة هي وأولادها، وهو ما يدفع الكثير من

هذه الفئة إلى انحراف سلوكها الذي يوقعها في دوامة نفسية جراء سلوك أفراد مجتمعها، الذين ينبذونها نهارا، ويتسللون إلى منزلها ليلا بحثا عن المتعة.

ومن هنا نستنتج أن مجتمع محمد مفلاح يهتم بنسق المحافظة أكثر من اهتمامه بنسق الدين.

1-1-2- الزواج: من أنساق المحافظة في مجتمع محمد مفلاح الروائي والذي ساهم في تشكيل الشخصية ماديا ومعنويا نسق الزواج، لأنه يعصم الفرد من الوقوع في الرذيلة، ويحقق له -عادة- التوازن النفسي، كما أن مجتمع محمد مفلاح يرفض وبشدة كل علاقة خارجة عن إطار الزواج، وقد انعكس هذا النسق على تشكيل الشخصية الروائية عند محمد مفلاح من:

أ- الجانب المادي: فشخصيات محمد مفلاح خاضعة للمجتمع، تسعى جاهدة لإرضائه حتى تحقق نسق الزواج، فترفض الأسر المحافظة تبرج بناتها، عكس العائلات غير المحافظة التي تتفنن بناتها في إظهار مفاتنها للرجال قصد جلب إعجاب الرجال ومن ثَمَّ الزواج بها، مثل فتيحة الوشام التي كانت تبالغ في زينتها، لذلك كانت حلم معظم شباب الحيّ الفقير منه واليتيم، لا الثري وصاحب النسب العريق، وكذلك خروفة التي بالغت في الاهتمام بمظهرها (لباس، عطور، حلي، كعب عالٍ، ...) حتى تستمر خطبتها مع الرجل الثري جيلالي العيار[33].

والمتأمل لبعض الشخصيات النسائية في أعمال محمد مفلاح يجدها قد تشكلت لنا بطريقة غير مباشرة من جانبها المادي وبشكل دقيق من خلال تبرير الشخصيات الرجالية عدم الارتباط ببعض الشخصيات النسوية بسبب أشكالهن، مثل: العالية (الوساوس الغريبة) التي طلقها زوجها بسبب نحافتها وذمامتها، وكذا زوجة عبد الحكيم الوردي. يقول السارد: "كان حظها سيء مع عبد الحكيم الوردي ... ربما تزوجها بدافع الشفقة، لم تكن جميلة، فملامح وجهها غير متناسقة وجسدها هزيل أما قامتها فقصيرة جدا"[34]، والأمثلة كثيرة مثل: خيرة (خيرة والجبال) التي كان مظهرها (الذمامة + طريقة اللباس)، وكذا سلوكها المريب سببا في عنوستها[35]، وسمية الراقنة الذميمة[36]، وخدوج الممرضة[37]، و...

ومن هنا نستشف أن الجمال للمرأة عند مجتمع محمد مفلاح جسر قوي للوصول إلى هدف الزواج، حتى ولو كانت سيئة السمعة، نعيمة زلاميت، فاطمة الحمراء، ...

وقد ركز الكاتب رغم قلة اهتمامه برسم الشخصيات ماديا – بتصوير هذه الشخصيات ليبرر للقارئ رفض الرجال الارتباط بها، وبهذا يكون نسق الزواج في شقيه (القبول والرفض) قد رسم لنا الشخصيات النسائية بدقة في جانبها المادي.

ونلاحظ أن نصوص محمد مفلاح الروائية لا تركز على المظهر الخارجي للشخصيات الرجالية باعتباره سببا من أسباب قبول الفتيات وعائلاتهن للزواج أو رفضه، فالأعراف السائدة في ذلك المجتمع هي أن عيب الرجل في الارتباط هو المال، يقول السارد: "ولكن نعيمة النعاس لم ترض به زوجا ما دام معدما ولا مأوى له"[38]، أو الفحولة، فشخصية ربيعة (الانهيار) قد انجذبت إلى شخصية الرجل المثقف (محفوظ) في البداية، لكنها تمردت عليه بعد أن فقد فحولته معها، أما فاطمة الحمراء (بيت الحمراء) فقد انجذبت إلى قدور بلمريكان الرجل الثري، وكذلك خروفة (عائلة من فخار) وفتيحة الوشام (الكافية والوشام) اللتان انجذبتا إلى الرجال الأثرياء، إلا ما جاء بشكل عارض في رواية بيت الحمراء أين وصف لنا السارد اهتمام موسى البقال بمظهره للتقرب من فاطمة الحمراء، فكان في ذلك الوصف بناء ماديا لهذه الشخصية، يقول السارد: "بقي في كرسيه أمام باب المحل منتظرا أن تُطلّ فاطمة الحمراء كان انيقا في لباسه الجديد"[39]، "رأت موسى في لباسه الجديد جالسا على كرسي بلاستيكي أبيض"[40].

ب- **الجانب المعنوي**: وهو الجانب الأكثر ثراء في تكوين الشخصية الروائية، فبطلات مفلاح تعشْنَ خوفا نفسيا من العنوسة والرغبة الجامحة في الزواج سواء أكانت أرملة أم عزباء أم مطلقة، هذا الخوف يجعلهن يعشن صراعا نفسيا مع ذاتهن وقلقا دائما وتوترا، وسنختار على سبيل التمثيل لا الحصر شخصية خدوج المرضة في رواية بيت الحمراء وشخصية سمية الراقنة في رواية الكافية والوشام اللتان تتجرعان مرارة العنوسة، وتعيشان شعور المرارة بسبب الوحدة والنبذ والاحتقار من المجتمع، فيتسرب اليأس إلى نفسيهما وتبدآن التفكير بالزواج من شيخ أو عاطل عن العمل أو عديم الأخلاق أو ... حتى إن خدوج قد تسرب إليها شعور الكره اتجاه الرجال لأنهم لم يرغبوا في الزواج منها.

1- "عارضتها بحماس:

- بدون الرجال ستصبح الحياة مملة ... إنك قاسية على الرجال.

- إنها الحقيقة التي لا نريد نحن النساء التصريح بها.

- بكل صراحة أقول لك أنني كرهت الحياة لأنني عانس، فأنا أكره الرجال لأنهم لم يهتموا بي ... أقول لك الحقيقة أنا أتمنى أن يتزوجني أي رجل ولو ليوم واحد وليخطفني بعد ذلك الموت"[41].

2- "واصلت سيرها نحو الراقنة سمية العانس الصابرة على هموم حبها الفاشل ... فاجأتها اليوم وهي تحدثها عن علاقتها بشيخ مقاول متزوج مريض بالقلب، لامتها فتيحة على سلوكها الغريب فتنهدت

سمية قائلة: كرهت نفسي هذا الشيخ المتصابي قد يتزوجني من يدري؟ ... قالت سمية بحزن: المهم أن لا أسمع كلمة العانس عند كل مناوشة أو حين أمر في أنهج الحي"[42].

ومن الشخصيات الرجالية التي كان لنسق الزواج دور مهم في تشكيل شخصيتها من جانبها المعنوي شخصية عواد الروجي (بيت الحمراء) الذي كان شديد الانفعال والتوتر، معاقرا للخمرة لأنه لم يستطيع تحقيق حلم الزواج خاصة من نعيمة زلاميت[43]، وكذا منصور (الانهيار) الذي أصبح عصبيا وعنيدا بسبب شخصية وردة[44]، وقلقا بسبب شخصية ربيعة[45]، ولعل في شخصية عمار الحر (الوساوس الغريبة) نموذجا قويا في أثر نسق الزواج في تشكيل الشخصية معنويا، والمتتبع لهذه الشخصية يجدها شخصية قلقة غير مستقرة، وليست لديها القدرة على اتخاذ القرارات، تسكنها وساوس غريبة، غير مبالية اندفاعية تعيش ضغط المجتمع، وضغط والدته لأنه لم يتزوج، بالإضافة إلى ضغط خطيبته فوزيه العسلي التي تحاصره دائما وعائلتها بإعلان موعد العرس، وبعد رحلة عذاب واضطراب نفسي، نجد أن هذه الشخصية في نهاية السرد قد استقرت وسكن الهدوء نفسها، واشتهت الكتابة بعد أن تعسرت عليه من قبل.

"وصاح فرحا وهو يدور في غرفته.

- سأتزوج.

- وستكون سعادة والدته عظيمة ستدوي زغرودتها القوية في أجواء المدينة ... عاد إلى مكتبه فجلس على الكرسي ... رشف قهوة باردة ... شرع في الكتابة بشوق ومحبة"[46].

- "لا لن يخدع فوزية العسلي سيتزوجها ... وسيواصل الحياة معها ... شعر أنه تغلب على نفسه القلقة وأصبح قادرا على مواجهة ضعفه"[47].

1-2- نسق الستر:

أ- الستر لغة: جاء في لسان العرب ستر الشيء يستره ويستره ستر أخفاه، والسَّتر بالفتح مصدر سترت الشيء أستره إذا غطيته، وفي الحديث: (إن الله حيي ستير)"[48]، ومعظم المعاني لمادة [س ت ر] في لسان العرب دالة على الإخفاء والتغطية، وهو نقيض الكشف والفضح.

ب- الستر اصطلاحا: "كل ما تقوم به الذات من حجب لسوء صادر منها أو واقع عليها، حقيقيا كان أو متوهما منها، حماية لذاتها أو لمن هو في حكم ذاتها، حيث تخفيه عن الآخرين"[49].

ويُعدُّ الستر من القيم الإسلامية التي جاءت بنصوص صريحة في الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة، مثلما جاء في صحيح البخاري في باب ستر المؤمن على نفسه.

ومن أبرز القضايا الاجتماعية التي يسعى مجتمع محمد مفلاح الروائي إخفاءها وسترها:

1-2-1- الاغتصاب: تعاني شخصيات محمد مفلاح النسوية من الاغتصاب الذي يمارس عليها، والتي عادة ما تفضل عدم البوح به، إما خوفا من مغتصبها الذي يكون أكثر منها جاها أو قوة، وإما خوفا من الفضيحة في مجتمع لا يرحم، وقد ساهم هذا النسق في تشكيل الشخصية الروائية عند محمد مفلاح على:

المستوى المعنوي: نلاحظ أن هذا الفعل يؤثر في تشكيل الشخصية على المستوى المعنوي أكثر من المستوى المادي، إذ أن معظمها تعيش قلقا دائما من فضح أمرها، وبالتالي احتقارها ونبذها أو استغلالها من طرف الآخرين، وكذا خوفها من عدم الزواج مستقبلا، لذلك نجدها شخصية خائفة يُمارس عليها كل أنواع العذاب من طرف الزوج المغدور حتى لا يفضحها، أو الشخصيات الرجالية التي تراها وعاء لاحتضان حماقاتها.

ويُعد الارتباط بامرأة مغتصبة فاقدة للشرف عند الشخصية الرجالية في أعمال محمد مفلاح عارٌ لا يمكن السكوت عليه، وهو فعل مرفوض وغير مقبول إطلاقا لدى مجتمع محمد مفلاح الروائي مهما كانت وضعية المرأة ضحية أو راغبة، لذلك كثيرا ما تتعرض إلى التعنيف، فالعذرية من الأشياء المقدسة لدى الشخصيات الذكورية مهما كان انتماؤها الاجتماعي والثقافي، فعواد الروجي الفقير والعربيد، صاحب السوابق يشترط الفتاة العذراء، يقول السارد: "يجب أن تكون عذراء لم يمسس جسدها أي رجل، توترت أعصابه"[50]، وقد جن بعدما أخبره سليم الزين بأنه طلق نعيمة لأنه وجدها ثيبا[51].

وفي رواية بيت الحمراء تعيش البطلة أزمة نفسية حقيقية بعد اغتصابها من طرف قدور بلمريكان، وتخشى فضح أمرها وعدم الزواج، لكنها ترتاح بعد أن تلتقي بسليم الزين الذي أوهمها في البداية أنه يؤمن بالعصر الجديد، ولا أهمية للعذرية عنده، لكنه سرعان ما أصبح يعنفها بعد الزواج لتبوح له بصاحب الحادثة، "دارت حول نفسها ... في داخلها نما قلق مخيف استولى عليها ... انتظرت أين يجرها هذا القلق اللعين ... همست متأسفة حطمتني يا سليم الزين.

- تفو كلب حقير خدعتني يا سليم ... صفعها ذات يوم ... ولما ثارت في وجهه صارخة بسخط: لم لما تضربني؟
- ارتعش وصفعها مرة ثانية وهو يصيح كالمجنون أنت ساقطة، هزها بعنف وقال لها بقوة:
- اقسمي لي أن تقولي الحقيقة ... سألها بحدة من أفقدك عذريتك؟

– بكت نعيمة بحرقة، كان كل ليلة يشبعها ضربا وفي فترة الخطبة أحبها بعنف، ولما أفشت له يوما بالسر الذي لم يكن يعلمه قال لها بأنه ليس متخلفا، ثم ما قيمة غشاء في عصر الصواريخ؟ ... ولكن بعد شهرين تغير سلوكه أصبح رجلا عنيفا يسألها كل ليلة عن الرجل الذي اغتصبها"[52]، ورغم أن نعيمة زلاميت قد استطاعت أن تتخلص من بعض مخاوف الفضيحة بعد رحيل طليقها، إلا أنها قد عاودت شعور الخوف والقلق بعد عودته رغم قوة شخصيتها ومواجهتها للمجتمع، وإذا كانت نعيمة قد وجدت والدتها سندا لها وأعطتها القوة التي تحتاجها لمواجهة مستقبلها بعد الفضيحة وهو ما أكسبها قوة وتحديا، فإن مريم السموري (الكافية والوشام) قد استسلمت لأحمد معاليش (مدير الكافية) وكتمت سر اغتصابه لها، وتحولت إلى إنسانة مسلوبة الإرادة تتحكم في مصيرها زوجة أحمد معاليش فتيحة الوشام، فتزوجها احميدة الرفاف الذي ينهار بعد أول يوم من الزواج لاكتشافه الفضيحة، وتطلقها منه عنوة رغم حملها ورغبتها الملحة في البقاء معه، لأن فعل الاغتصاب قد كسر محرك القوة داخلها.

ونلاحظ اختلاف سلوك سليم الزين مع سلوك احميدة الرفاف، فسليم رفض الأمر بطريقة جنونية، وعاد إلى المدينة بهدف فضحها بعد هجره لها لسنوات، بينما احميدة فقد كظم غيظه ولم يسألها عن الفاعل حتى يحقق أهدافه البراغماتية بعد أن وعدته فتيحة الوشام بحياة كريمة.

ويعد فقدان العذرية للشخصيات النسائية عند محمد مفلاح من المواضيع الحساسة والمسكوت عنها فعادة ما يتم تعنيف النسوة مدة ثم تطليقهن مع الفضيحة، مثلما فعل عمار مع زوجته خضرة (الانهيار)[53] وغيره من النماذج، أو رفض الارتباط بهن مثلما رفض عواد الروجي الزواج من نعيمة بعد أن فضحها زوجها سليم الزين، وهو إن دل على شيء إنما يدل على تمسك المجتمع الروائي عند محمد مفلاح بالقيم الأخلاقية الراسخة والمتجذرة في عمق أفكاره.

فمحفوظ خشي أن يطلق زوجته بعد مدة قصيرة من الزواج حتى لا يُظن فيها ظن السوء من الناس ويتهمونها بفقدان العذرية، ويحي ليتيم طار فرحا ليلة زفافه بعد أن وجد خيرة التي طالتها الألسن في القرية عن شرفها عذراء، وغيرها من الأمثلة.

من خلال هذه النماذج يكشف لنا نسق الستر ذكورية المجتمع الذي يمارس سلطته وتعسفه ضد مخلوق ضعيف ذبح مرتين، مرة بسبب الاغتصاب، ومرة بسبب تبعات الاغتصاب النفسية والاجتماعية، فالرجل المستغِل بدل ما "يثور عن عاره الحقيقي – المتمثل في طحنه من طرف الفئة المتسلطة – يثور ضد

من يمثل عاره الوهمي وهو المرأة المستضعفة متشبثا بلقب الشرف الذي يمنحه امتيازات ذاتية تمنحه بعض الرضا والثقة في مواجهة الناس"[54].

1-2-2- الماضي المشوه: يحاول الإنسان السوّي قدر المستطاع أن يدرس خطوات حياته حتى لا يجني ماضيا ملوثا يلاحقه مدى الحياة، ويسكنه دوامة من الخوف والقلق لاكتشاف أمره أمام الناس، فيبذل كل جهده للستر على نفسه.

ويعد الماضي المشوه من أكثر الأشياء التي سعت الشخصية النسائية عند محمد مفلاح في سترها حتى لا تفضح، ومن هذه الشخصيات فاطمة الحمراء (بيت الحمراء) التي حاولت إخفاء سبب خروجها من المدينة ورحلتها إلى وهران، وفتيحة الوشام حاولت إخفاء علاقاتها المتعددة قبل وبعد طلاقها المستمر على أحمد معاليش، أما خروفة (عائلة من فخار) فقد كانت تخفي سر علاقتها بجلال العزاوي، وزياراتها لشقة جيلالي العيار قبل الزواج، لأنها تخشى الفضيحة وهي ابنة عائلة تعيش على أمجاد أجدادها في البطولة والشرف و...، وقد ساعدتها في ذلك والدتها التي بررت للجارة أن ابنتها زوجة جيلالي وقد ذهبت معه بعد إعلامها[55]، ونلاحظ أن الشخصية النسائية في أعمال محمد مفلاح قد اختارت نسق الستر كحل مثالي لمشكلتها، لأنها تدرك وضعية الضعف الممارس عليها في محيطها، لذلك تسعى إلى البحث عن معينات تحمي بها نفسها، فتستحضر ذلك النسق باعتباره معينا يجنبها كثيرا من التبعات المؤذية لها[56] من جانب المجتمع، وليس من جانب الدين الذي لا نجد له بصمة في نسق الستر في هذه الأعمال.

وقد أثر هذا النسق في بناء الشخصية الروائية عند محمد مفلاح في:

الجانب المعنوي: الشخصيات النسائية التي تحتفظ بأسرار تخص ماضيها السيء عادة ما تعيش حالات الخوف من اكتشاف أمرها، فتبدأ في البحث عن مصدر أمان يساعدها على تجاوز تلك المخاوف، وعادة ما يكون هذا المصدر هو الأم، عكس الشخصيات التي تفتقد إلى هذا السند، فنجدها تتصارع مع هواجسها ومخاوفها عن طريق التداعي الحر، ومحاورة المرآة حتى لا يبقى ذلك السر جاثما على صدرها.

1-3- نسق الفحولة:

أ- الفحل لغة: جاء في لسان العرب: " فحل: الْفَحْلُ مَعْرُوفٌ: الذَّكَرُ مِنْ كُلِّ حَيَوَانٍ، وَجَمْعُهُ أَفْحُلٌ وَفُحُولٌ وَفُحُولَةٍ وَفِحَالٌ ... وَرَجُلٌ فَحِيلٌ: فَحْلٌ، وَإِنَّهُ لَبَيِّنُ الْفُحُولَةِ"[57]، وهو تعريف يجمع بين التفرد والتخصص.

ب- **الفحولة اصطلاحا**: ارتبط مفهوم الفحولة في الماضي عند العرب في الشعر خاصة غرض الهجاء، فالشاعر الفحل هو من يلجم أفواه مبارزيه من الشعراء مثلما فعل علقمة مع امرئ القيس، بعد أن جعلا أم جندب المرأة الصفية الطبع السليمة الذوق حكما بينهما، وانتهت المبارزة بتفوق علقمة وصار فحلا[58]، وهي إحدى الروايات.

ويُعد الناقد عبد الله الغذامي من النقاد العرب المعاصرين الأوائل الذين تطرقوا إلى مسألة الفحولة في الشعر، مركزا على العوامل الثقافية التي صنعت هذا الفحل، ولأن الثقافة أوسع من الشعر فإن مصطلح الفحولة يسري في كل المجالات، يقول الغذامي: "لقد انتقل النسق وترحَّل من الشعر إلى الخطابة ومنها إلى الكتابة ليستقر بعد ذلك في الذهنية الثقافية للأمة ويتحكم في كل خطاباتنا وسلوكياتنا"[59]، وبهذا يكون نسق الفحولة قد هاجر إلى فنون الأدب الأخرى كالسرد مثلا، وقد اخترت نسق الفحولة ضمن الأنساق الثقافية الثابتة لأنه من الأنساق التي لا تتغير في المجتمعات العربية خاصة الضيقة منها، وسأتناول في هذا المطلب نسق الفحولة انطلاقا من الثقافة الشعبية والاجتماعية السائدة في تلك البيئة.

1-3-1- المرأة الفحلة: فالمرأة بطبيعتها البيولوجية والنفسية مخلوق رقيق، لا يتحمل صعاب الحياة إلا أن التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي طرأت على المجتمعات العربية استعارت هذا النسق إلى المرأة، ورغم أن هذه الاستعارة من العيوب النسقية التي كانت في الماضي إلا أنها لاقت إكبارا واستحسانا من الرجال أنفسهم، فيقال: (امرأة بألف رجل)، (امرأة فحلة) وهكذا، وهو ما حوَّل مركز الفحولة من الرجل إلى المرأة عن طريق ممارسة فعل الفحولة[60] وليس أصل الفحولة، وفي أعمال محمد مفلاح الروائية نجد نموذج المرأة الفحلة مستحبا في ذلك المجتمع حتى إنه تحول إلى نسق ثابت، مثل: هدى الوهرانية (عائلة من فخار) التي أصبحت تملك مكتب دراسات، والتي كانت محل إعجاب يمينة النساج، وكذا شخصية زينب الهندي (الوساوس الغريبة) الأرملة الثرية التي طلب منها عبد الحكيم الوردي مساعدته لأنه لا يملك النقود فتعده بذلك، "أنا شاعر ولي أكثر من ديوان، ولكني لم أجد مالا لأطبع على نفقتي أي ديوان من مخطوطاتي الكثيرة ... فأنا موظف بسيط ومرتبي الشهري متواضع جدا لهذا لجأت إليك ... قد تتعجبين من طلبي هذا ولكن ثقتي فيك كبيرة، لذا قصدتك راجيا منك مساعدتي على طبع أحد دواويني"[61].

وشخصية المرأة صاحبة المال التي استعارت الفحولة من الرجل فأصبحت هي من تنفق عليه وتساعده كثيرة في مجتمع محمد مفلاح الروائي، إذ إننا نجد فتيحة الوشام (الكافية والوشام) مكنت احميدة

الرفاف من عملٍ في مؤسسة الكافية، ومن سكن في العمارات الرمادية بعد أن أنهكته البطالة، بالإضافة إلى شخصية فاطمة الحمراء (بيت الحمراء) التي تنفق على البيت وزوجها المخمور في مدينه وهران بتجارة الذهب.

وملاحظ أن هذا النسق قد كان له الأثر البين في تشكيل هذه الشخصيات من خلال:

أ- الجانب المادي: وهنا نجد شخصية خيرة (خيرة والجبال) التي كانت تتميز بالقوة في مظهرها الخارجي، فهي تقوم بكل أعمال البيت الخارجية زرع سقاية ...إلخ، لذلك كانت لا تهتم بمظهرها الخارجي، ونظرتها حادة[62] مثل الرجال، وهو ما جعل سكان القرية ينادونها بالخير ويفكرون في خطبة فتاة لها[63]، وعند زواجها قالت إحدى الحاضرات: "تزوج يحي رجلا وهو لا يعلم"[64].

ب- الجانب المعنوي: تظهر سلوكات خيرة المضطربة حالتها النفسية بسبب استعراضها لنسق الفحولة، فهي لا ترغب أن تصبح أما ولا أن تتزوج أو أن تعيش الحميمية مع زوجها الذي كان يضربها لذلك "رفضت أن تكون مجرد امرأة، فهي لا تريد أن تعيش حياة عادية مثل الأخريات لا هم لهن إلا شؤون البيت"[65]، تمشي في الشارع تستوقف الرجال وتحدثهم بصوت عال غير آبهة بتقاليد القرية.

أما فتيحة الوشام ورغم قوتها إلا أنها كانت تتمنى زوجا يجعلها امرأة وتنجب أطفالا، وكذلك هو الشأن مع فاطمة الحمراء التي فضلت الزواج من موسى البقال عدوها الأزلي حتى لا تبقى حياتها بين البيوت لتبيع خواتما، أصبحت تتنمى "المكوث في البيت محترمة وفي حماية الزوج المخلص"[66] بعد أن كانت تناطح رجال الحيّ وتقف في وجوههم وتهددهم بالضرب.

1-3-2- الفحل الأخلاقي: ونماذج الفحل الأخلاقي عند محمد مفلاح قليلة، لكن معظمها ينتمي إلى طبقه المثقفين الذين يتأثرون بالثقافة، فتصبح سلوكاتها موزونة عند بعضهم أو متهورة عند البعض الآخر في حالة التطرف الفكري، فعمار الحر كان فحلا أخلاقيا له مبادئ وقيم، لكنه من شدة إيمانه بمعتقداته وأفكاره أصبح عصبيا وشكاكا و...، والنمط نفسه نجده في محفوظ (الانهيار) الذي دخل في دوامة الضعف والشك حتى انحرف عن أخلاقه التي عرف بها عند الناس، حتى إن خضرة التي ذهب إليها ليلا مخمورا أدخلته البيت ومنحته قهوة ساخنة وترقبت الشارع صباحا ليخرج حتى لا يسقط في نظر الحي لأنه خلوق.

1-4- الفحل الجسدي: يتوزع الفحل الجسدي في أعمال محمد مفلاح على محورين، محور خاص بالشخصيات النسائية ومحور خاص بالشخصيات الرجالية، فأما المحور الخاص بالشخصيات

النسائية فتمثل في رغبة معظم الشخصيات النسائية في ذَكَرٍ يلبي احتياجاتها الجنسية من خلال ممارسة العلاقة كل يوم، يقول السارد: "تمنت لو كان زوجها رجلا قويا يحبها بعنف التتار ويعصرها كل ليلة بين ذراعيه"[67]، وهو ما جعلها تقوم بفعل الخيانة مع الشاب احميدة الرفاف، أما ربيعة (الانهيار) فقد كانت تنتظر كل ليلة أن تختلي بزوجها لكنه رغم شبابه قد أعرض عنها لأنه يعيش مخاض الكتابة، وكذلك خيرة المرأة الكهلة التي كانت تنتظر محفوظ دائما لتأخذ منه ما تريد، وقد كان لهذا النسق أثر في تشكيل الشخصية من:

أ– الجانب المادي: إذا نجد اهتمام هؤلاء النسوة بمظهرهن من تبرج وحلي وعطور وغنج في الكلام لبلوغ مرادهن مع الرجل الذي جذبهن.

ب– الجانب المعنوي: حيث استطاع هذا النسق أن يغير في سلوكهن، فكثيرا ما تجدهن في حالة هستيرية شديدة من الغضب أو القلق أو الصراخ على أتفه الأسباب، وكثيرا ما ينتهي الأمر بطلاقهن لأن الحياة لا تستقيم في نظرهن –بدون تلبية حاجاتهن الجسدية والنفسية–، ونلاحظ أن معظم الشخصيات النسائية عند محمد مفلاح تسعى إلى تحقيق أهدافها الجسدية دون مراعاه للحالة النفسية أو العمرية أو الجسدية للرجل، فربيعة زوجة محفوظ لم تتحمل هجران زوجها لها رغم تبريره لحالته التي تسيطر عليه بسبب عسر الكتابة، فتبدأ في اتهامه بالعجز وبالمرض، وتلح عليه بأن يذهب إلى طبيب حتى يتم علاجه، وبعد حروب وثورات نفسية انتهى بها المطاف إلى دخول مغامرة يصعب على المرأة خوضها، يقول السارد: "طافت به ربيعة الشوارع والأنهج والأزقة، كان هدفها من وراء ذلك واضحا وهو أن يراها معارف زوجها فيسرون لمحفوظ بالنبأ المفجع سيجن الرجل وسيهددها بالطلاق ... ستتحداه وستقاومه بكل أسلحتها أمام القاضي، ستطعن في سلوك زوجها وترفض الطلاق، ستعذبه طويلا ستذله قبل أن يقرر طلاقها ... ستنتقم لكرامتها الجريحة ... لا يهمها إن قالوا إنها امرأة مستهترة وسيئة السمعة"[68].

ولعل انتشار نسق الخيانة عند الشخصيات النسوية في أعمال محمد مفلاح هو ما يفسر اهتمام المرأة فيها بالجانب الحسي والجسدي في ذاتها.

وأما المحور الخاص بالشخصيات الرجالية فيظهر نسق الفحولة الجسدية من خلال الرغبة في ممارسة العلاقة مع النساء الجميلات والفاتنات مهما كان انتماؤهن أو سنهن أو سلوكهن، وقد كان لهذا النسق أثر في تشكيل هذه الشخصيات من:

أ– الجانب المادي: حيث كانت الشخصيات الرجالية تتباهى بقوتها العضلية والجنسية التي ستسعد حتما نساء المدينة أو القرية، فمن وجهة نظرهم أن المرأة لا تنتظر شيئا من الرجل إلا إسعادها جسديا، وسنختار منصور المعدم الذي اعتمد على قوة جسده لإغراء وردة –المعلمة المثقفة المخطوبة– على الزواج، "لا أظنها ترفض طلبي. مد ذراعه اليمنى ذات العضلات المفتولة وهزها في الهواء بزهو، ذراعي قوية ... ماذا تريد مني؟ إنها في حاجة إلى إنسان قوي يحميها من الناس، لو أتقدم إليها طالبا يدها ستسعد بذلك ولن تفكر في ذاك الطالب الجامعي المخنث"[69]، ويظهر لنا هذا المقطع السردي مفهوم منصور للرجل المناسب للزواج، فالطالب الجامعي في نظره لا يليق لهذه المهمة لأنه مخنث.

ب– الجانب المعنوي: نجد نسق الجسد قد ساهم في تشكيل الشخصية من جانبها المعنوي، حيث إن هذه الشخصيات الشبقة التي تتمنى ممارسة الجنس حتى مع ممثلات الأفلام الأجنبية[70] في مخيلتهم، ومع أي امرأة بعيدا عن المشاعر، قد اكتسبوا ثقة قوية في أنفسهم من وراء قوة أجسادهم وعطشهم الجنسي، فمنصور مثلا يظن أن وردة المعلمة المثقفة مثل نعيمة وربيعة اللتان تفضلان الرجل القوي بدنيا على الرجل المثقف لو كان أميا لأنه سيسعدهما.

وكما أن نسق الفحولة قد جر نسق الخيانة للنساء جره أيضا للرجال، ولكن بطريقة مبتذلة أكثر، فمنصور بعد أن كان يعشق وردة ويتمناها زوجة حتى يروي ظمأه منها ها هو يتمنى ربيعة زوجة لأنه لم يستطع مقاومة نداء عينيها، ويدعو الله أن يطلقها محفوظ حتى يتزوجها، متحديا بذلك سخرية الناس لأنه أعزب وتزوج ثيبا.

وتظهر قوة نسق الفحولة الجسدية لدى محمد مفلاح في ظهور نسق آخر وهو نسق العنف، فالكثير من الشخصيات الرجالية كانت تمارس هذا الأخير على زوجاتهم وحتى خليلاتهم في حالة رفضن ممارسة العلاقة، أو إظهارا للرجولة التي تتغذى من فكرهم المظلم والمحصور في جسد المرأة، والتي هي في نظرهم مجرد وعاء لصب غرائزهم وحماقاتهم، إنها تابعة وخادمة له، وهو ما يفسر نفورهم من النساء الذميمات ولو كن ذوات أخلاق، وانجذابهم نحو النساء الجميلات ولو كن سيئات السمعة.

الخاتمة:

خلصت الدراسة إلى جملة من الاستنتاجات لعل أهمها:

1– تعد الأنساق الثقافية عامة من الوحدات الأساسية في تشكيل الخطاب الروائي شكلا ومضمونا.

2- الأنساق الثقافية عامة ليست من صنع أو خيال الكاتب، إنما بنيات ذهنية متجذرة في وعي ولا وعي الأفراد، تفرض نفسها على الشخصية التي تحتويها، وهي إما متحركة أو ثابتة وإما متجذرة فعالة أو هلامية وغير فعالة.

3- الأنساق الثقافية الثابتة هي الأنساق التي تستمر دورة الحياة فيها إلى عدة أجيال وتبقى شامخة تفرض نفسها بقوة.

4- ساهمت الأنساق الثقافية وبشكل كبير ومباشر في تشكيل الشخصية الروائية عند محمد مفلاح ماديا ومعنويا، وقد كان للجانب المعنوي النصيب الأوفر من هذه الأنساق ذلك أن الأنساق الثقافية في المجتمعات العربية خاصة المحافظة ترسم وتقنن سلوكات الناس وتفرض سيطرتها عليهم باسم الدين والأعراف، وهو ما يولِّد في نفوسهم الإحساس بالقهر والضغط والظلم والإهانة والسيطرة، لذلك عادة ما تحاول رفضها عن طريق نسق التمرد أو الخيانة أو ...

5- ولَّد تعدد الأنساق الثقافية الثابتة بنائية التقاطب بين ما هو واقع مفروض وبين رغبات الشخصيات فنسق المحافظة ولد نسق التمرد والرفض ونسق الفحولة ولد نسق الخيانة ونسق الستر ولد نسق القبول والخضوع.

6- تشبث المجتمع الروائي في أعمال محمد مفلاح الروائية غالبا بالأنساق الثابتة لأنه مجتمع محافظ ورتيب وضيق.

7- ارتباط نسق الستر بالشخصيات النسائية أكثر من الشخصيات الرجالية ذلك أن مجتمع محمد مفلاح الروائي محافظ وذكوري، يبيح للرجال مالا يبيحه للنساء، وقد تفاوتت درجات هذا النسق من شخصية إلى أخرى، فالستر عند الأغنياء تختلف أهميته عند الفقراء، والستر عند المرأة يختلف عنه عند الرجل، فالمرأة تخاف الفضيحة الأخلاقية لأنها ترتبط بأسرتها، كالاغتصاب والدعارة والماضي الأسود و... وتخاف التشرد في الشوارع فتنجب ولدا غير شرعي لتضمن بقاءها في البيت، وتجنب نفسها نسق السخرية والشفقة من المجتمع بسبب عقمها، أما الرجل فيختار نسق الستر خوفا من نسق السخرية الذي يطاله في حالة العنَّة أو العقم، فالموت أهون عنده من هذه الفضيحة، أو خوفا من نسق العار الذي يطاله بسبب سلوك حريمه.

8- اهتمام الشخصية النسائية بنسق الفحولة الجسدي وذلك راجع إلى بنيتها الذهنية البسيطة والزائفة لمفهوم الفحولة والذي رضعته منذ الطفولة من واقعها.

9- تأثير نسق الخطأ على الشخصيات الرجالية في مفهوم الفحولة فالفحل عندها قوي الجسد الذي يشبع غرائز شريكته، وليس الرجل المهذب والمثقف وصاحب الدين.

هوامش:

1 ينظر: رولان بارث، هسهسة اللغة، تر: منذر عياشي، (1999)، مركز الإنماء الحضاري، حلب – سوريا، ص 78.

2 عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية (1998)، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 232، ص 59.

3 سمير كاظم خليل، فضاءات النقد الثقافي من النص إلى الخطاب، (2014)، دار تموز للطباعة والنشر، دمشق – سوريا، ط 1، ص 8.

4 ابن منظور محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الإفريقي، لسان العرب، (1414هـ)، دار صادر، بيروت – لبنان، ط3، 351/10 – 352، [ن س ق].

5 ناصر الحجيلان، الشخصية في قصص الأمثال العربية، نقلا عن: أحمد موسى ناصر المسعودي، الأنساق الثقافية في تشكيل صورة المرأة في الرواية النسائية السعودية، (2014)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت – لبنان، ط1، ص 32.

6 ينظر: عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، (2008)، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، ط4، ص 77 وما بعدها.

7 أحمد موسى ناصر المسعودي، الأنساق الثقافية في تشكيل صورة المرأة في الرواية النسائية السعودية، ص 34.

8 ينظر: دلال ملحس استيتية، التغيير الاجتماعي والثقافي، (2010)، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ط 3، ص 252.

9 ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، 441/7، [ح ف ظ]

10 أحمد موسى ناصر المسعودي، الأنساق الثقافية في تشكيل صورة المرأة في الرواية النسائية السعودية، ص 38.

11 طوني بينيت وغيره، مفاتيح إصلاحية جديدة – معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، تر: سعيد الغانمي، (2010)، المنظمة العربية للترجمة، بيروت – لبنان.، ص 671.

12 جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، (1984)، بيروت – لبنان، ط2.

13 مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، (2005)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 9، ص 104.

14 سيدي محمد بن مالك، رؤية العالم في روايات عبد الحميد بن هدوقة – مقاربة سوسيوشعرية، (2015)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، ص 236.

15 محمد مفلاح، رواية الوساوس الغريبة، (2005)، دار الحكمة للنشر والترجمة، الجزائر، ص 100.

16 محمد مفلاح، رواية الانهيار – الأعمال غير الكاملة –، (2007)، دار الحكمة، الجزائر، ص 21.
17 محمد مفلاح، رواية الكافية والوشام، (2002)، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين – دار هومة، الجزائر، ص 54.
18 محمد مفلاح، رواية بيت الحمراء – الأعمال غير الكاملة –، (2007)، دار الحكمة، الجزائر، ص 127.
19 محمد مفلاح، رواية عائلة من فخار (مسار المتقاعد صاحب الخيزرانة)، (2008)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران –الجزائر، ص 69.
20 محمد مفلاح، رواية الانهيار، ص 35.
21 محمد مفلاح، رواية بيت الحمراء، ص 139.
22 محمد مفلاح، رواية عائلة من فخار، ص 69.
23 محمد مفلاح، رواية بيت الحمراء، ص 129.
24 محمد مفلاح، رواية الانهيار، ص 77.
25 محمد مفلاح، رواية الوساوس الغريبة، ص 16.
26 محمد مفلاح، رواية عائلة من فخار، ص 15.
27 المصدر نفسه، ص 13.
28 محمد مفلاح، رواية خيرة والجبال، ص 440 و446.
29 محمد مفلاح، رواية الكافية والوشام، ص 47.
30 محمد مفلاح، رواية الانهيار، ص 12، و15، و29.
31 محمد مفلاح، رواية بيت الحمراء، ص137.
32 محمد مفلاح، رواية الوساوس الغريبة، ص 73، و74، و88، و163.
33 محمد مفلاح، رواية عائلة من فخار، ص 50.
34 محمد مفلاح، رواية الوساوس الغريبة، ص89.
35 محمد مفلاح، رواية خيرة والجبال، ص 439 - 440.
36 محمد مفلاح، رواية الكافية والوشام، ص 106.
37 محمد مفلاح، رواية بيت الحمراء، ص 150.
38 المصدر نفسه، ص124.
39 المصدر نفسه، ص137.
40 المصدر نفسه، ص137.
41 محمد مفلاح، رواية بيت الحمراء، ص149.
42 محمد مفلاح، رواية الكافية والوشام، ص106.
43 محمد مفلاح، رواية بيت الحمراء، ص 119.

44 محمد مفلاح، رواية الانهيار، ص 41.
45 المصدر نفسه، ص 94.
46 محمد مفلاح، رواية الوساوس الغريبة، ص 164.
47 المصدر نفسه، ص 159.
48 ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، 343/4، [س ت ر]
49 أحمد موسى ناصر المسعودي، الأنساق الثقافية في تشكيل صورة المرأة في الرواية النسائية السعودية، ص 73 – 74.
50 محمد مفلاح، رواية بيت الحمراء، ص 118.
51 المصدر نفسه، ص 199.
52 المصدر نفسه، ص 126 – 127.
53 محمد مفلاح، رواية الانهيار، ص 48.
54 مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، ص 48.
55 محمد مفلاح، رواية عائلة من فخار، ص68.
56 أحمد موسى ناصر المسعودي، الأنساق الثقافية في تشكيل صورة المرأة في الرواية النسائية السعودية، ص 89.
57 ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، 516/11، [ف ح ل].
58 ينظر: السيد أحمد صقر، شرح ديوان علقمة الفحل، (1935)، المطبعة المحمودية، القاهرة – مصر، ص 3 – 4.
59 عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص 123.
60 المصدر نفسه، ص 119.
61 محمد مفلاح، رواية الوساوس الغريبة، ص 150.
62 محمد مفلاح، رواية خيرة والجبال، ص 439.
63 المصدر نفسه، ص 440.
64 المصدر نفسه، ص 443.
65 المصدر نفسه، ص 437.
66 محمد مفلاح، رواية بيت الحمراء، ص 142.
67 محمد مفلاح، رواية الكافية والوشام، ص 15.
68 محمد مفلاح، رواية الانهيار، ص 96.
69 المصدر نفسه، ص 41.
70 محمد مفلاح، رواية بيت الحمراء، ص124.